آثار قوم عاد

من سياق الآيات الواردة في ذكر عذاب قوم عاد يتبين أنه لا توجد أي آثار أو بقايا لهم، وأن ما تذكره بعض الروايات والكتب والقصص عن شكل المدينة وأوصافها أنها قد بنيت من اللؤلؤ والياقوت والعقيق والزمرد والأحجار الكريمة، لا أجدها إلا أنها من أساطير (ألف ليلة وليلة)، ومن نسج خيال العقل البشري المحدود لقدرات وإبداع الخالق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهذا لا يمكن أن يكون؛ لأنها غير قابلة للوصف، وأجزم أنها غير موجودة بتاتًا، حتى إن قيل: إنه وجد بعض الأثر؛ لجزمي أن ما وجد من آثار بالمنطقة، فإنها لا تمت لقوم عاد ومدينتهم (إرم)، وإنها لأقوام أتوا وحلوا مكانهم بعدهم، وذلك بالدليل القاطع في الآيات الآتية من القرآن الكريم:

- قَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧ فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦-٨].

- وقَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ۝١٩ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ۝٢٠ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ﴾ [القمر: ١٩-٢١].

- وقَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٤-٢٥].

- وقَالَ اللَّهُ تَعَالَىٰ: ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ۝٤١ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

وبقراءة الآيات نستخلص تسلسل عذاب قوم عاد من هلاك، ثم تدمير، ثم تفتيت وفناء خلال مدة العذاب: ﴿سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَٰنِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

١- الهلاك: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا۟ بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٦].... فالهلاك يعود إلى القوم: عاد.

١-١ ﴿تَنزِعُ ٱلنَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ﴾ [القمر: ٢٠].

نجد أن بداية العذاب كانت الريح تنزع القوم، وتقتلعهم من بيوتهم، وما كانوا متشبثين به اقتلاعًا، كأنهم النخل المقتلع من أعماق جذوره.

١-٢ ﴿فَتَرَى ٱلْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٧].

بعد أن نزعتهم من مخابئهم، وما تشبثوا به، طرحتهم فوق سطح الأرض، وهذا ما يثبت أن الريح لم تكن ريحًا رملية لتدفنهم، بل كانت ريحًا شديدة البرودة ذات صرصر قاصمة، أبقتهم فوق سطح الأرض كاملي الأجساد، فَتَرَى ٱلْقَوْمَ مترامين كالنخل الخاوي؛ أي إنهم واضحون وضوحًا للرائي.

وهاتان المرحلتان كانتا مرحلتي الهلاك للبشر.

تلتهما مرحلة تدمير المعالم ومظاهر الحياة.

٢- التدمير: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وكان الأمر من ربها أن تدمر كل شيء... والتدمير بعد هلاك القوم على ماذا يكون؟

فما هو كل شي؟

هل الزرع والأنعام ضمن كل شيء؟

وهل المباني والأثاث والأدوات تدخل ضمن كل شيء؟

فلقد كان عذاب قوم ثمود وقوم مدين (هلاكًا) للبشر بالصيحة والرجفة في ثلاثة أيام لكل قوم منهم، وبقيت مبانيهم، ولم يرد في عذابهما (تدمير)، فأما قوم عاد فقد جعل عذابهم (هلاكًا يليه دمار) في سبع ليالٍ وثمانية أيام مستمرة، فقوة الريح وشدة برودتها مع صريرها كافية لتقضي على القوم: كالصيحة والرجفة في المدة نفسها، ولكن أراد الله لهم عذابًا أقوى وأعتى بأضعاف مضاعفة، مما اغتروا به من قوة وجبروت وبطش، لتدمر كل شيء لمحوهم وفنائهم، ليكونوا عبرة لمن بعدهم بأن القوة لله.

ثم تتلوها مرحلة التفتيت.

٣- الرميم (الرم): ﴿وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ ﴿٤١﴾ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤١-٤٢].

ومن أسماء ريح عذاب قوم عاد (العقيم)، ومن صفاتها أنها لا بركة ولا فائدة ولا خير فيها، أتت لتزيل كل ما هو ظاهر على سطح الأرض لهم إزالة تامة بالتفتيت من جثث القوم وأشجار وأنعام نافقة، وتفتيت المباني، وخاصة المباني؛ لأنها كانت إبداعًا فريدًا اختص به قوم عاد، ولم تكن بناء كبناء الأقوام الأخرى، كثمود ومدين، وغيرهما من بناء البشر المحض، فقد يريد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بهذا المحو أن يكون البناء من عمل البشر المحض وليس خلقًا، بهذا تأكيد بأن الريح لم تترك أي شيء ظاهر يخص القوم مرت عليه، إلا جعلته رميمًا مفتتًا، فالمباني شيء من الأشياء التي مرت عليها، ففتتها.

وتختتم مراحل العذاب بمرحلة الاستئصال.

٤- الاستئصال: ﴿فَهَلْ تَرَىٰ لَهُم مِّنۢ بَاقِيَةٍ﴾ [الحاقة: ٨].

أتت هذه الآية بعد ذكر المدة سبع ليالٍ وثمانية أيام؛ أي بعد الهلاك والتدمير وانقضاء مدة العذاب، فهي الآية الحاسمة في تأكيد فنائهم وفناء معالمهم واستئصالهم، فلم يعد لهم من وجود أو بقايا لآثارهم؟

وأخيرًا بعد مراحل العذاب بالهلاك والتدمير والتفتيت والاستئصال تأتي مرحلة الإحلال.

٥- الإحلال:

٥-١ ﴿فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

والعلم عند الله أنه بعد ذكر كل هذه الآيات من هلاك وتدمير وتفتيت، أنه لم يبقَ من آثارهم شيءٍ إلا مواقعهم، فالمساكن في هذه الآية قد تأتي بمعنى المواقع، وليست المباني، فقد بين سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن المباني قد رمت وتفتتت في قوله: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] ولم تبقَ سوى الموقع خاليًا من جميع مظاهر الحياة.

٥-٢ ﴿وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ وَتَبَيَّنَ لَكُمۡ كَيۡفَ فَعَلۡنَا بِهِمۡ وَضَرَبۡنَا لَكُمُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ [إبراهيم: ٤٥].

لم يتحدد في هذه الآية أنها لقوم عاد أو لقوم آخرين بذاتهم، فهي عامة لجميع الأقوام الظالمة الكافرة، التي أنكرت ما جاءت به الرسل، وأُبيدت، وهي تنطبق على قوم عاد كذلك.

﴿ وَسَكَنتُمۡ ﴾ تعني نزلتم وأقمتم، ومساكن المقصود بها في الآية منازل وأماكن، والمنزل لغة الموقع أو المكان. وقد وصف الله المواقع بالمساكن: ﴿ وَسَكَنتُمۡ فِي مَسَٰكِنِ ﴾؛ أي نزلتم في منازل، ووصف سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ مواقع القمر بالمنازل في كل مرحلة من مراحله في قوله: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ ٱلشَّمۡسَ ضِيَآءٗ وَٱلۡقَمَرَ نُورٗا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ ﴾ [يونس: ٥].

فلو أن مساكنهم هنا يُقصد بها البيوت والقصور لبقيت، وبانت، ووضحت، كما بقيت مباني الأقوام الأخرى من بعدهم: كثمود ومدين وغيرهم.

والروايات والشُّروح والتفاسير تعددت في ذكر قوم عاد ومدينتهم إرم، بأنهم قد طمروا، ودفنوا تحت كثبان الرمال في عذابهم، فهذا ليس صحيحًا، فلا توجد آية واحدة في القرآن الكريم تشير إلى ذلك، أو تدل على طمرهم، بل إن الآية واضحة على رؤية الجثث فوق سطح الأرض: ﴿فَتَرَى ٱلۡقَوۡمَ فِيهَا صَرۡعَىٰ ...﴾ [الحاقة: ٧] إثبات بعدم الطمر.

وهناك رواية تذكر أن الريح حملت جثثهم الفانية، وقذفتها إلى البحر، وهذه الرواية خيالية ضعيفة، خالية من الصحة؛ لعدم وجود الدليل، وكيف يكون ذلك والآية واضحة جلية: ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيۡءٍ أَتَتۡ عَلَيۡهِ إِلَّا جَعَلَتۡهُ كَٱلرَّمِيمِ ﴾ [الذاريات: ٤٢] فالأصح أن الأجساد قد بليت، وفُتّتت بعوامل الريح كما ذكرت الآية، والأجساد شيء من الأشياء، التي أتت عليها الريح.